

تعريب الذهنيات قبل الألسنة

الدكتور محمد كشود

وزير سابق

يعارض البعض استعمال مصطلح "التعريب" لاعتقادهم أن استعمال المصطلح يعد خطأ، باعتبار أن الشعب الجزائري عربي اللسان في الأصل، وبالتالي لا يمكن تعريبه ولذا فضلوا كلمة تعميم استعمال اللغة العربية بدلا منه.

ولئن كنا نتفق مع هذا الطرح نسبيا، إذا ما كان الأمر يتعلق بجزء من التعريب لم يتم تعميمه بعد على مستوى مؤسسات الدولة، وبذلك تكون كلمة "استعمال تعميم استعمال اللغة العربية" عوض التعريب هي الأصح، إلا أن مصطلح التعريب يبقى قائما، لأننا نعني بالتعريب في المقام الأول تعريب الذهنيات، قبل الألسنة، لأن الذهنيات المتحجرة تمثل في الواقع أخطر الحواجز التي تحول دون تعميم استعمال اللغة العربية في مؤسسات الدولة بمختلف اختصاصاتها، والتعليم العالي، باستثناء الآداب والعلوم الإنسانية، وذلك تحت ذريعة عدم وفرة الإمكانيات.

ويعدّ في اعتقادنا رفض إدخال التعريب في بعض المؤسسات بصفة عامة، وفي بعض مواد العلوم في التعليم العالي بصفة خاصة بحجة قلة الإمكانيات من مصادر وتأطير وما إلى ذلك، هو ضرب من الأوهام وذهنيات مازالت لم ترقّ بعد إلى ما يجب أن تكون عليه تماشيا مع الحقيقة وواقع الجزائر.

وإنّ الاعتقاد، بأنّ البحث العلمي يرتكز أساسا على اللغة، هو اعتقاد وهمي وهو تهرب من الحقيقة.

لقد قلنا ومازلنا نقول، ونؤكد ما قاله غيرنا بأن عملية البحث والاختراع والإبداع تنبع من الأفكار، أمّا اللغة فهي وسيلة لترتيب، وتركيب، وتوصيل هذه الأفكار إلى الغاية التي نريد الوصول إليها

عن طريق البحث والتجارب. وصحيح أيضا، أن البحوث والاختراعات لا تقتصر على الإدارة، والقدرة على الإبداع فحسب، ولكن قد تصادفنا عراقيل الإمكانيات المادية البحتة التي علينا توفيرها. غير أن هذه العوائق لا يجب أن تقف أمام المفكرين كحجر عثرة، بل يجب تخطيها بواسطة الإرادة الصادقة.

وعليه لا بد من تحديد هذه الإمكانيات، والتي لا تخرج في اعتقادنا عن عنصرين أساسيين: أحدهما مادي وثانيهما معنوي. ونعني بالعنصر المادي: ما قد ينحصر في الوسائل بالمفهوم الواسع، كالآلات والأدوات، وغيرها من الإمكانيات المادية الأخرى. أما العنصر المعنوي: فنعني به إرادة الشخص، وإمكاناته الفكرية، والمبادرة في البحث والاختراع وهذه العناصر تدخل في جملتها تحت عوامل مدى قدرة الفكر الإنساني على الإبداع والعطاء بوسائل عديدة، ومنها اللغة لأنها لصيقة بالذات بمساعدة اللغات الأجنبية بطبيعة الحال والتي قد تعد من الضروريات الملحة أحيانا في هذا الشأن، لاسيما في عصرنا الحاضر. وبهذا يبقى الفكر الإنساني ومدى قدرته على التحدي، هو الأساس في عملية الابتكار.

وإذا عدنا إلى أسباب إهمال لغتنا الوطنية باعتبارها المحور الأساسي كوسيلة للبحث. علينا أن نتعمق في هذه المسألة ونتساءل؟ هل صحيح أن الفكر العربي لا يقبل احتمال البحث بواسطة استعمال لغته الوطنية كعنصر أساسي وكوسيلة يعبر بها، مما يجعله يلتجئ إلى البلدان الأجنبية ولغاتها التي توفر له الإمكانيات الملائمة لمتابعة بحثه؟

شخصيا لا أعتقد ذلك، لأنه برهن على قدرته وحيويته من خلال تجاربه الناجحة في الاختراعات، مرات عديدة على الرغم من قلة الإمكانيات والأدوات المتوفرة لديه كما ذكرت من قبل. ولو أنّ هذه الأدوات هي نفسها لابدّ أن تخضع للاختراعات والإبداعات، في إطار المخطط الذي يوضع من أجل الوصول إلى الأهداف المحددة، كما فعل غيرنا في بلدان أخرى وبلغات أقل فعالية من اللغة العربية.

وبالنسبة للمخطط المرسوم لذلك: فعلى الدولة أن تعمل من أجل تحديد التوجهات الكبرى للبلاد، وذلك عن طريق مخطط مدروس قابل للتنفيذ سواء في المدى القريب، أو المتوسط، أو البعيد يتماشى ومصلحة البلاد في جميع نواحي الحياة. وفي هذا الإطار يمكن أن يتم توجيه الطلبة منذ البداية للاعتناء بالبحوث، بناء على التوجهات المرسومة بمختلف أنواعها وفي جميع الميادين، مع ترتيب الأولويات وتوفير الإمكانيات اللازمة لذلك.

ونحن عندما نقول لابدّ من توفير الإمكانيات، لا نقصد الإمكانيات التي تخرج عن طاقاتنا، أو نطالب بما هو غير ممكن، وبالتالي نحاول اختراع الصعوبات التي تحول دون تمكيننا من بلوغ أهدافنا. ومن أهم العوائق -في اعتقادنا- التي تواجه الباحث في اعتماده على لغته الوطنية كوسيلة للتعبير هي:

أ- *الذهنيات*: تعدّ الذهنيات أحد العناصر الأساسية في نجاح أو فشل أي مشروع يهدف إلى تحقيق غايات الأمة. لاسيما إذا كانت ترفض الامتثال إلى واقع حقيقي ملموس لا غبار عليه، وذلك بسبب:

1- *عدم الثقة في النفس*: بحكم مركب النقص الذي مازال يهيمن على الذات عند البعض، وبالتالي يرفضون المغامرة، والمبادرة، وكأنني بهذا الشعب حسب ما يعتقدون بذلك أنه لا يقبل أن يكون متبوعا بل يكتفي بالتبعية من خلال عناصر عديدة، ومن بينها اللغة.

2- *ضعف ثقافة البحث العلمي*: الذي يعتبر -في اعتقادنا- المحور الأساسي في مجال إعادة الاعتبار للشخصية الوطنية عن طريق استخدام لغته كوسيلة في البحث العلمي والتي تعتمد أساسا على الموهبة الفكرية، والثقة في النفس والتفتّح على العالم الخارجي.

3- *التأثير والتأثر*: يلعب هذان العنصران أدوارا هامة في حياة الأشخاص. فبالإضافة إلى التأثر الذي يساير الفرد منذ

نشأته عن طريق الأسرة والمدرسة والمحيط، وهذا الأخير يعد أساساً في الموضوع فإنه أيضاً يمكنه أن يؤثر في الغير بما يملك من خصائص الرؤى والاستشراف.

ب - اللغة : إن عدم الإيمان بالمكانة الخاصة للغة في حياة الشعوب يعد من العوائق الحساسة، وكذلك عدم توفر الإمكانيات المتاحة للعمل بها في مجال البحث العلمي مما يؤدي إلى اللجوء إلى اللغة التي تمكن صاحبها من الوصول إلى الغاية النسبية التي يصبو إليها. ومن هذا المنظور فإن التخطيط، وفسح المجال للغة الوطنية حتى تلعب دورها في مختلف الورشات العلمية المكتملة هو من الضروريات الحتمية التي لا يمكن الاستغناء عنها.

ج - الإرادة العصامية : وهي أحد العناصر الأساسية والتحفيزية في تكوين شخصية الباحث العلمي مبدئياً، قبل أن يصبح بطبيعة الحال مفكراً عالمياً، لاسيما إذا كانت بحوثه تخدم الإنسانية جمعاء، وليس بلاده بمفردها. وانعدامها قد يضعف شخصيته مهما كانت نيته وقدرته وموهبته.

د - الوطنية الصادقة : إن حب الوطن من الإيمان، وترسيخ حب الوطن لدى أفراد شعبنا، يعد من البواعث العميقة لإدخال البلاد مجال العولمة بكل قوة ونجاح، ولغته الوطنية مجال البحث العلمي.

وفي خضم هذه الأفكار المبعثرة نوعاً ما، نتساءل عن مدى أهمية هذه الأهداف المرجوة؟

وقبل الإجابة على ذلك لابد أن نعود إلى الذهنيات المؤثرة والمتأثر بها، في مجال البحث.

لابد أن نعترف وأن معظم الذين يشرفون على زمام أمور التعليم العالي، من إداريين وأساتذة، مازالوا لم يتخلصوا بعد من هاجس اللغة الأجنبية وضرورة هيمنتها، لأنهم يرون بأنه وبها فقط، يمكننا حسب ما يعتقدون الدخول في عالم البحث العلمي بصفة جدية والحصول على نتائج معتبرة، وذلك لأنهم يرون في العربية التأهيل لأن تضاهي غيرها من اللغات في قدرات التحكم في البحث العلمي، وبالتالي يتجنبون الخوض في عمقها المجهول حسب ما يرون، وهذا "حق أريد به باطل".

يتذرع أصحاب هذا الرأي بعدم توفر المصادر والأطر التي تعينهم على التعمق في البحث، مما يجعلهم يلتجئون للاستعانة بالمصادر الأجنبية.

ونحن لا نخالفهم في هذا الطرح بقدر ما، نؤكد مطامحنا في التفتح على العالم الخارجي، لأنّ العلم ليس حكراً على جهة معينة.

ولذا نحن من الذين يشجّعون العودة للمصادر والاستعانة بالأطر الأجنبية عند الحاجة، إلا أنه لا بد أساساً من الرجوع إلى المصادر العربية وإغنائها، بزيادة التأليف بها لا العكس، مع فسح المجال أمام القادرين على إعطاء دروس باللغة العربية، وإلاّ كيف يتم تطوير هذه اللغة وترقيتها إذا ما بقينا نعتمد على اللغة والمصادر الأجنبية فقط؟

وفي هذا الصدد علينا أن نتساءل عن سبب هذا التعت عند هؤلاء؟ ولو أن الإجابة على ذلك سهلة والرد عليه بسيط بساطة تفكيرهم في هذا الموضوع.

لاشك وأن اللغة الأجنبية التي يتحكّمون فيها قد أثرت عليهم ولعبت دوراً هاماً في تكويناتهم الإيديولوجية، إلّا أنهم يحاولون إخفاءها ويتذرعون بالمصلحة العليا للوطن وحرية التعبير، والديمقراطية والعولمة. هذا بالإضافة إلى أنهم لا يؤمنون بقدرة اللغة العربية على مواكبة التطورات الحديثة. يقول أحد هؤلاء العادين للغة العربية: "إنني أتصور عندما يحدثونني على تدريس العلوم باللغة العربية، كأنّ رجلاً في الصحراء ينفخ "الناي" رافعاً رأسه إلى السماء". وجاء على لسان أحد الأساتذة الغيورين على لغتهم، أنه ناقش أحد الأساتذة - الذين لا يؤمنون بقدرة اللغة العربية - حسب زعمه، وكان مشرفاً على تسيير إحدى الجامعات، فقال له: "نحن الجزائريين، نرفض أن نصبح نتكلم اللغة الفرنسية كما يتكلمها...."، وذكر بعض الدول الشقيقة والصديقة.

تصوّروا معي مثل هذه السذاجة حتى لا أقول كلاما آخر، ما ضرّ هذا المسؤول وأن يتكلم الجزائري الفرنسية بطلاقة، وبدون تكسير في نحوها ونطقها عوض تعلمها كي تكون مساعدة له في بحوثه العلمية. أما الأول فقد اعتقد وأن العالم المتعرب عبارة عمن ينفخ النّاي في الهواء.

إنّ التفكير بمثل هذه الذهنيات الشاذة، هي التي كانت السبب في ظهور ذهنيات مضادة ومتطرفة مما يستوجب علينا الوقوف ضدّ المغالاة، لأنها تعد أمّ العراقيل.

صحيح أنّ المسألة قد لا تكون بالسهولة التي نراها، ولكن لابد من تكثيف العمل الجاد من أجل تصحيح المفاهيم لدى الأطراف المتشكّكة. وفي هذا السياق، فإنّ الجزائر لا تشذ عن بعض الدول التي مرّت بنفس المرحلة، حيث وجدت بعض أبنائها يتنكرون بطريقة أو بأخرى لهويتهم وعلى رأسها لغتهم، وقد اعتبروا أنفسهم ينتمون حضارة إلى شعوب أوروبا ولا علاقة لهم بالعالم الذي ينتمون إليه حقا. وذلك نتيجة تأثرهم بما بلغت إليه من أوج حضارتها، ومن هؤلاء على سبيل المثال "سلامة موسى" في مصر، وغيره، ممّن ناصروه في عصره.

ونحن إذ ندعو إلى ضرورة تعريب الذهنيات قبل كل شيء، فإنّنا نعني بتعريب الذهنيات جعلها تتقبل، وتقتنع وتؤمن بأن اللغة العربية كوسيلة يمكن التعامل بها مثلها مثل اللغات الأخرى، وأن قوتها وضعفها يكمن عند العاملين بها. ونعني بالذهنيات أيضا الأفكار، والنفوس، والإيمان، والثقة، والإرادة التي يجب علينا ترويضها، وتهيئتها لاستيعاب

أهمية اللغة الوطنية باعتبارها لصيقة بالشخصية لا يمكن الاستغناء، أو الانفصام عنها.

قال أحد كبار مفكري أوروبا "ديكارت" "أنا أفكر إذن فأنا موجود". وقال أحدهم لآخر "يا هذا أفي الله شك؟" مقولة ترددت كثيرا وستظل تتردد دائما لأنّ اليقين القلبي الإيماني هو المحيط الواسع الذي يضمّ البرهان العقلي.

فإذا كانت الذهنيات تؤمن بوجودها وإثبات وجودها، وبأنه لم يكن عبثا، فلا بد أن تعمل لتحقيق غرضها وذلك بمختلف الطرق. وقد يتلفظ اللسان بلغات عديدة، وهذا ليس عيبا بل هو محبذ عند الضرورة، ولكن على الفكر والعقل أن يؤمنا بمضمون الشخصية التي من بين عناصرها اللغة الوطنية.

فعندما يؤمن الذهن بأنه مرتبط بمجموعة من التراكيب اللصيقة بشخصيته الإنسانية، فلا خوف من التلفظ بأي لغة كانت وذلك للتعبير عما قد يصعب الإفصاح عنه باللغة الأم أو للتعامل مع الغير، أو للاستعانة به، بل بالعكس لابد من دفعة لتعلم لغات أخرى للمزيد من التحصيل العلمي.

غير أنّ المغالاة في التعبير باللغات الأجنبية وحتى مع أطفالنا الصغار وبدون مبرر وراء غطاء العصرية، والعولمة، وما شكلهما من أغراض، ودون إبداع أية محاولة أو جهد للتخلص من هذا النقص، قد يؤدي إلى تأثيرات سلبية أكثر منها إيجابية، وإلى التبعية للغير شكليا.

لقد اندهشت كثيرا عندما سمعت بعض الذين يرددون شعارات عن جهل أو قصد، يقولون: لماذا هذه المغالاة ضد اللغة الأجنبية ونحن جوار أوربا، وحتى مفجري الثورة التحريرية قد حاربوا الاستعمار بلغته؟ ولا ندري بالضبط مغزى هذا الشعار المحير الذي أصبح يتداول على ألسنة البعض بقصد خلط الحسابات التي نحن في غنى عنها. وفي هذا السياق نحذر من محاولة تغليب الشباب، وتشويه الحقائق سواء كان ذلك عن سوء أو حسن نية، ويبقى أمامنا أن نتساءل عن قصد هؤلاء المدعين؟ فإذا كانوا يقصدون عدم التعصب ضد اللغة الفرنسية، فليس هناك جزائري ضد أي لغة مهما كانت، ولم يكن أي يفكر بأنه وطني أكثر من غيره لأنه يحسن لغة دون الأخرى، وإذا كانوا يؤمنون حقيقة بهذه الأوهام، أي أنّ مفجري الثورة حاربوا فرنسا بلغتها فقد وجب علينا علاجهم بواسطة التربية المدنية، أو من خلال مواجهاتهم بالحقائق الفعلية إن كانوا عنها ساهين.

إن شبابنا الذي كان له الفضل في تفجير ثورة التحرير، هو شباب جزائري، منه من كان مثقفا باللغة الفرنسية وقد كان تعليمها إجباريا من الاستعمار، ومنه من كان مثقفا بلغته الوطنية والتي كانت تكاد تكون ممنوعة وتعتبر كأنها لغة أجنبية، ومع ذلك تعلمها رغم أنف الاستعمار، كما كان البعض أميين لا يحسنون لا اللغة الفرنسية ولا اللغة العربية، ولكن كانت قلوبهم موجهة ضد الاستعمار لتخليص بلادهم منه. أما حجة جوار أوربا، فهذا يزيدنا تأكيدا وحرصا على لغتنا إذا ما تطلعا إلى تاريخها في هذا المجال وكيف تعاملت هي مع هوياتها على الرغم من

تقارب حدودها وقلة عدد سكان معظم دولها ومع ذلك تبقى تعتر كل واحدة بلغتها.

وإنّ مثل هذه المغالطات التي حاول بعض ذوي النفوس السيئة ترسيخها في أذهان الشباب، هي مغالطات مفضوحة لا أساس لها من الصحة، لأنّ شعبنا قام وحرر بلاده لا بالّغة ولكن بالتضحيات الجسام والدماء الزّكية الطاهرة، من أجل استرجاع السيادة الوطنية ومن بين عناصرها اللغة، وقد استخدموا مختلف لغات العالم لبلوغ الهدف، وهذا ليس عيبا، بل العكس.

وما دما تطرقنا لهذا الموضوع فمن المجدي ذكر بعض الأمثلة حدثت أثناء ثورة التحرير، وكانت مأساة مؤلمة حقيقية لبعض الشهداء الذين لم يكونوا يحسنون اللغة الوطنية بفعل الاستعمار، حيث بكوا مرات عديدة بالدموع حينما لم يتمكّنوا من تبليغ رسالتهم بلغتهم العربية، أمام الشعب كما فعلوا ذلك بالسلاح.

ومن صوّر الإيمان الراسخ أيضا عند هؤلاء الشهداء الأبرار، وفي بعض المناطق الجبلية، حيث لم تكن الجماهير تحسن اللغة العربية جيّدا، بل تستخدم لغتها الأمازيغية-، ومع ذلك فقد خاطب أولئك الشهداء الأبرار النساء، والرجال والشيوخ، والأطفال بالّغة العربية، فقد تقبلوا ذلك منهم بكل فرح وهم يصفقون عاليا، مع العلم بأن المتحدثين يحسنون الأمازيغية والسامعين لا يفهمون العربية، كان ذاك الموقف علامة يرونها من زاوية الوحدة والتلاحم، فالمتكلم والسامع كانا متفقين

على التخابط بلغة وحدة الشعب بدون أية عقدة ولا نقص. دون نية إقصاء اللغة المحلية.

ومن العجائب التي تبدو للعيان أننا أصبحنا نعيش في حاضرنأ ما لا يمكن تصديقه لو لم نعشه كأشخاص فعليين، عندما صادفنا جزائريين يحتجون بعرائض أمام البرلمان الأوروبي على دولتهم التي تقدمت بمشروع قانون تعميم استعمال اللغة العربية في فترة المجلس الانتقالي والمعمول به حاليا، ويطالبون بمساعدتهم لإلغائه تحت غطاء أن الوقت لم يحن بعد لتطبيق هذا القانون في الجزائر المستقلة، وقد حدث بالفعل أن تدخل البرلمان الأوروبي ليعبر عن انشغالاته نحو هذا الموقف الذي أقدمت عليه الدولة الجزائرية حسب تعبيره، وهللت بعض الصحف التغريبية لموقف البرلمان الأوروبي في هذا الصدد يا عجباه!!!

فمثل هذه التصرفات لابد أنها ناتجة عن الذهنيات التي لم تقبل بعد بالتطور الحضاري لبلادنا، ولا تريد التخلص من الأفكار التغريبية المؤثرة عليها.

ويا ليت الذاكرة تعيد النقاش الذي دار بين الراحل هواري بومدين وصنغور رئيس دولة السينغال سابقا فيما يتعلق بالهوية وأمام مجموعة من رؤساء الدول الإفريقية في أحد اللقاءات الرسمية، وفي دائرة ضيقة خاصة.

حينما قال الراحل بومدين: "إنّ من أسباب انحدار الدولة الإفريقية هو عدم الاعتناء بهويتها، وتعزيز انتمائها لغة وحضارة و... ". فأجاب صنغور بقوله: "لك الحق يا بومدين عندما تقول هذا، لأنّ الجزائر لها

الحظ في أن توحيدها حضارة واحدة وهي الحضارة العربية الإسلامية-
ولغة واحدة وهي اللغة العربية. أما نحن فلكل دولة ما يربو عن 30
لهجة، وفي بعض الأحيان لكل قبيلة لغتها، أو لهجتها، الأمر الذي
دفعنا لاستعمال إما اللغة الفرنسية بالنسبة للدول التي كانت تحت
سيطرة فرنسا، أو اللغة الإنجليزية بالنسبة للدول التي كانت تعيش تحت
الاستعمار البريطاني، لجمع شتاتنا، فشتان ما بيننا من حقائق ووقائع
مرة". وقال أحد أئمة دولة مسلمة لغتها الرسمية ليست العربية لجزائري
في زيارة لبلاده: "لقد خصّكم الله بفضله"، فأجاب الجزائري: "خصّنا جميعا
كمسلمين، لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى"، فقال: "لا، خصّكم
فضله لأنكم تقرأون القرآن كما نزل باللغة العربية، ونحن نلتجئ إلى
ترجمته التي تكون في كثير من الأحيان عسيرة، ومعقدة".

ومن خلال هذا يتّضح لنا، أن الغير يخصنا باحترام كبير، بينما
نحن نريد أن نتخلص من هذه النعمة، ونبحث عن النعمة التي يعيشها،
على مضض مجبرا غير مخير. ولهذا نريد أن نوّكد على ضرورة خلق
ذهنيات مؤمنة بوجودها، وشخصيتها وبذواتها المتمثلة في مقوماتها
الأساسية، ومنها اللغة وخاصة الشباب، كما نوّكد على وحدة التصرّو
في التفكير، لجعلها تتقبل التعليم، والتعلم، والتأثير، والتأثر، بما يخدم
البلاد أولا وقبل كل شيء.

حدث سنة 1962 أن بعض أبنائنا رفضوا الالتحاق بالأقسام
"باللغة الفرنسية" على اعتبار أن هذه اللغة هي لغة الاستعمار، إلّا أنّ
التوجيهات الموضوعية المقدمة لهم آنذاك لعبت دورها الإيجابي بعدما

عملنا على إفهامهم بأن تعلم اللغات هو من مطالب مجتمعنا للتفتح على العالم الخارجي، والاطلاع على ما وصل إليه الغير من علوم وتكنولوجيا وعلى معالمه، والاستفادة إن أمكن ذلك من نتائجه المتوصل إليها والتي لا تتعارض مع طموحاتنا، وثقافتنا، ومبتغانا، لاسيما وأنه بلغ درجة التقدم التي نصبو إليها نحن أيضا وأن تعلم لغات الغير تأمين لشره.

وهكذا نجحت بلادنا في تطلعها للغات الأجنبية ومن بينها اللغة الفرنسية، والتي خدمتها الجزائر أكثر مما خدمتها فرنسا في إفريقيا عامة، لكن حان الوقت لإعادة المياه إلى مجاريها وجعل اللغة الفرنسية لغة حيّة مكتملة ندرسها دون أن تحل محل لغتنا الوطنية أو التأثير بها إلى درجة محاولة استلاب هويتنا بفعل بعض ضعاف النفوس.

إن المغالاة التي نلمسها على لسان بعض الحاقدين على لغتهم عن جهل، وعدم تعمق ولا تبصر، ولا مقارنة موضوعية، طغت على مناهجنا، وبالتالي أثرت على أسلوبنا وسلوكنا الأمر الذي أبرز بالمقابل توجهها معاديا تماما لهذه اللغة بدعوى اتجاهات مختلفة.

إنّ ما يدمى له القلب، هو أن تجد دول العالم تحترم هذه اللغة لأنها تمثل حضارة عريقة، وتاريخا حافلا بالأمجاد، وآدابا وعلومًا أثرت في آداب وعلوم وفنون العالم وخير دليل على ذلك الأديب الإيطالي الذي يعتبر من المؤثرين في الآداب الغربية وهو "دانتي" المؤلف المشهور لـ "الكوميديا الإلهية" والمتأثر في كتابه هذا "برسالة الغفران" لأبي العلاء المعري. كما أنّ "خرافات لفونطين" الذائعة متأثرة بكتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع وأكتفي بهذين المثالين الدالين على أنّ اللغة العربية كانت

لها مكانة تعزز بها جميع الشعوب الناطقة بها، وأضيف لذلك دليل اعتمادها لغة رسمية في هيئة الأمم المتحدة.

والعجيب في هذا كله أننا نجد منا من يتشكك في قدراتها، في مبناها ومعناها وآثارها، وتأثيرها، ومكانتها في العالم.

كما أنه من العجيب أيضا أننا نجد أن بعض الدول التي تحترم نفسها تبعث إلينا بممثلين الذين يحسنون اللغة العربية، وهي تعتقد أنها أحسنت غير أنها تتفاجأ عندما تجد من لا يحبذ عندنا هذه التعيينات ويأمل لو كانت تبعث بالذين يتكلمون اللغة الفرنسية حتى ولو بصعوبة. والغريب أن البعض يتصرفون في بعض الأحيان وكأن اللغة الوطنية لغة أجنبية متخلفة تتعامل بها شعوب متخلفة مما جعلهم عندما يستقبلون الأجانب غالبا يطلبون منهم أن يكون المترجمون من الذين يحسنون اللغة الفرنسية.

ولا نتفاجأ عندما نجد البعض يعاملوننا بالمثل عندما يحضرون لنا التشريرات باللغة الفرنسية تلاضية لهذه الزمر، التي لا تعبر عن رأي الشعب بقدر ما تعبر عن نفسها وهي مسلوبة الفكر، والشخصية.

فلمن تعود المسؤولية في هذه الحالة؟

الحقيقة أن المسؤولية وهي جسيمة تعد مسؤولية مشتركة، إما بين ذوي الحل والعقد في بلد واحد، وإما تشترك فيها جميع الدول الناطقة باللسان العربي. فعندما يتعلق الأمر بذوي الحل والعقد في البلد الواحد، فهنا تبدو النية واضحة في عدم محاولة التخلص من اللغات الأجنبية في المعاملة الإنسانية.

أما ما يتعلق بالتخاطب فيما بين الشعوب الناطقة باللسان العربي فهي كارثة أكثر من الأولى، حيث تحاول كل دولة في أحسن الأحوال الاحتفاظ بلغتها العامية المحلية ومخاطبة الغير بها على اعتقاد منها أن هذه اللغة تفهم لأنها كما تعتقد أقرب إلى اللسان العربي الفصيح، مما يحول دون الوصول إلى التفاهم الكلي إلا ما تيسر منه.

هذه الأساليب قللت من حظ توسيع نطاق اللسان العربي الفصيح ما بين شعوبه وفي بعض الأحيان أدت بأصحابه إلى اللجوء للتفاهم باللغات الأجنبية، وفي كثير من الأحيان يتباهى كل فريق باللغة الأجنبية التي يتكلمها.

ففي المشرق العربي يتباهون بحسن التحكم في اللغة الإنجليزية، وفي المغرب العربي يتباهون بحسن التحكم في اللغة الفرنسية - وتبقى لغتنا يتيمة تتربص من يتفضل باستخدامها بدون خجل، ولا مركب نقص حتى فيما بين الناطقين بها.

ففي مثل هذه الحالات يتجلى دور الذهنيات المتشبهة بما هو غريب عليها في الأصل ولذا نقول لابد من تعريب الذهنيات قبل الألسنة. ومن هنا يحق للقارئ الكريم أن يتساءل عن مغزى الطروحات الآتية: هل يعتبر هذا بمثابة غلو في الطرح؟ أم تشاؤم؟ أم عتاب؟ أم هو جهل بحقيقة الأمر؟ ثم ماذا، هل نعيب الذهنيات بمفردها، أم يشترك فيها اللسان؟ وفي الأخير ما هي الحلول المقدمة؟

ومن خلال هذه الأسئلة المتوقعة عند قراءة هذه المقالة المتواضعة والتي هي في تصوري موضوعية، منطقية، حقيقية لا غبار عليها لأنها غير ناجمة عن التفلسف، بقدر ما هي مأخوذة من الواقع الفعلي.

القول بالغلو في الطرح: لا أعتقد ذلك لأن الأمثلة التي نعتها تعد القليل من الكثير مما هو متداول عند البعض وبكل أسف.

القول بالتشاؤم: لا أبدا، نحن شعب لا يعرف التشاؤم بقدر ما يعيش الأمل، لأن الظروف التي عشناها علمتنا التحدي، وإلا كيف نفسر المكانة التي كان شعبنا يحرز عليها وهو تحت وطأة الاستعمار، ولم ييأس، عمل وثابر، وكافح، وضحى، إلى أن بلغ هدفه المنشود.

بالنسبة للعتاب: نعم، لأننا نعتقد أن هذه الأمة لا تستحق كل هذه المحاولات لإدخالها تحت وطأة نكران ذاتها، بدون أي تفسير كان، ما عدا عقدة النفس ومركب النقص وعدم الثقة في الذات، وقدرات هذا الشعب صاحب المعجزات.

أما القول بجهل الحقيقة: فلا أعتقد ذلك على الرغم بأنه لا يمكن لأي كان أن يمتلك الحقائق التي بموجبها يستطيع أن يصل إلى ما يصبوا إليه الشعب. ولكن هناك مؤشرات يعمل بها الجميع منذ الأزل وهي الإرادة، والثقة، والمثابرة، والعمل، وبكل ذلك لا بد من الوصول إن شاء الله إلى الغاية المرجوة.

بالنسبة لعيب الذهنيات : أعتقد أن هناك شركة بينها وبين اللسان، ولكن الأساس تمتلكه الذهنيات لأن اللسان عبارة عن موطن تنفيذي لما تأمر به خلجات الروح، والفكر النابع من الإيمان الحقيقي. وعلى هذا الأساس نرى من جانبنا كاقتراحات للخروج من هذه الحلقة المفرغة ما يأتي: إن العمل والمسؤولية الأولى تعودان بالأساس إلى أهل التعليم الذين توكل لهم عمليات تخريج الكفاءات للساحة العملية الفعلية، بأفكار تربوية مؤمنة متفتحة، غير قابلة للتنازل، أو الانحناء، ولا للتقهقر أمام الغير شريط أن تكون هي نفسها مشبعة بالطروحات ولعمري، أن شبابنا من خرجي المدارس الجزائرية يتمتع بكل هذه الصفات الحميدة الوطنية وفاء لروح وتضحيات شهدائنا الأبرار.

إن شبابنا ينحدر من أمة عرفها التاريخ، وساهمت في صنع التاريخ، وليست هي ممن صنعها التاريخ. وعليه:

1- لابد من إدخال تعديلات على برامج التدريس، وإعطاء أهمية للتربية المدنية والوطنية، مع التركيز على المآثر والتاريخ المشترك.

2- لابد أن تخصص برامج السنوات الابتدائية لتعليم اللغة الوطنية فقط حتى نمكن تلامذتنا من التحكم فيها، والتحصين الفكري والشخصي والتأمين من مخاطر التأثير السلبي.

3- إدخال لغة أجنبية ابتداء من السنة الأولى بعد الشهادة الابتدائية أو عند الانتقال إلى السنة السادسة، على أن يكون تعلمها مركزا خاضعا "لمعامل أساسي" مقدر بعلامة محددة في الامتحانات، حتى نمكن أطفالنا

من دراسة اللغة الأجنبية دراسة وافية، معمقة، تسمح للطفل بالتحكم فيها جيداً، لتساعده عند الحاجة.

4- إدخال لغة أجنبية ثانية بعد الانتقال إلى السنة الأولى ثانوي على أن تكون لها نفس الالتزامات على الطالب لتمكنه من التحكم فيها بعد نيله البكالوريا، وبالتالي يصبح الطالب الجامعي يتحكم في ثلاث لغات إجبارياً مع التركيز على لغته الأم، وترك الباب مفتوحاً لمن يريد المزيد من تعلم لغات أخرى إن كانت له قابلية لذلك.

5- التنسيق ما بين الجامعات العربية لمقاربة مختلف المفاهيم وتصنيفها، ووضعها في بوتقة مشتركة جامعة لتنظيمها، وتوظيفها لتطوير وتنمية وخدمة البحث، دون ترك العنان للمحاولات الانفرادية التي لا طائل من ورائها والتي تشتت ولا توحد.

6- ضرورة استخدام اللغة العربية المهذبة عند مخاطبة والابتعاد عن اللغات المحلية لاسيما إذا تعلق الأمر بوسائل الإعلام في مختلف البلدان العربية حتى يتمكن السامع العربي من فهم الخطاب. ونعني باللغة المهذبة أي اللغة التي يمكن أن يفهمها المتوسط، مع الحفاظ بطبيعة الحال على سلامة اللغة.

إن طلب استخدام اللغة العربية السليمة لا يعني التعامل بالألفاظ الغريبة والتراكيب المعقدة ولا مطالبة غير المختصين من الناس العاديين بإتقان لغة أشعار "المهلهل" أو "امرئ القيس"، ولكن تقديم اللغة الراقية، والمفهومة لدى الجميع عوض اللغة المحلية، لا سيما عندما تستخدم

في الفضائيات الإعلامية- ولا بد من الابتعاد عن الأنانية، أو محاولة التأثير في الغير بنظرة ضيقة، لأنّ ذلك لا يخدم لا اللّغة ولا الوحدة في المفاهيم التي خصّنا بها التاريخ دون غيرنا.

7- ضرورة تعريب المحيط، لأنّه يعتبر الواجهة المعبرة عن الشخصية الوطنية، ولا بأس أن تسمح الجهات المختصة باستعمال اللّغة الأجنبية كإضافة جزئية، في بعض الأماكن السياحية وما يشابهها. وإنّ الإشهار في الملاعب باللّغة الأجنبية، ولوحات المحلات وغيرها لا نجد له أي مبرر ولا تفسير يعقل مثلاً.

8- وبالنسبة للإدارة فلم يعد هناك مبرر للإبقاء على اللّغة الأجنبية، إلّا إذا كانت هناك خلفيات مضمرة.

نحن لا نستطيع أن نغير واقع تاريخنا المشترك، الذي حدد قواعده، ورسخها في أذهان أمتنا، وإن محاولة إدخال تغييرات سلبية عليه- يعمل البعض على تحقيقها- سوف يكون مآلها الفشل، كما كان ذلك لدى أمم سابقة، بقي ذهنها خال من الأوهام، وكذا سلم لسانها من الشوائب ومحاولة التخلي عن أحد المقومات الأساسية.

إن الاستهانة بتطبيق اللّغة الوطنية والرسمية في مجتمعنا قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه آفاقاً. وأنّ أمثلة الشعوب التي تتخبط في دوامة الحروب الأهلية في العالم حالياً لسبب أو لآخر دليل على ذلك .

ولهذا الغرض فإنّ تحكيم العقل، والمنطق، والموضوعية، والوحدة الوطنية، ومصلحة البلاد تبقى أسمى من كل شيء.

ويقيني أنّ هذه الأمنيات لا تتحقق إلا إذا سلم الذهن من عوائق
النقص قبل اللسان وعليه لا بد من تعريب الذهنيات قبل الألسنة.